المسيحية في المفهوم الثقافي الاسلامي المعاصر

بقلم العالم الراحل الإمام
الشيخ محمد مهدي شمس الدين رحمه الله

إن صورة المسيحي البهية المقبولة في المفهوم الثقافي الاسلامي المعاصر لا يمكن أن يصنعها المسيحي أيضاً إلا حين يصوغ علاقاته مع المسلم على قاعدة ألحق والعدل ، ويعبر عنها في سلوكه وسياسته.

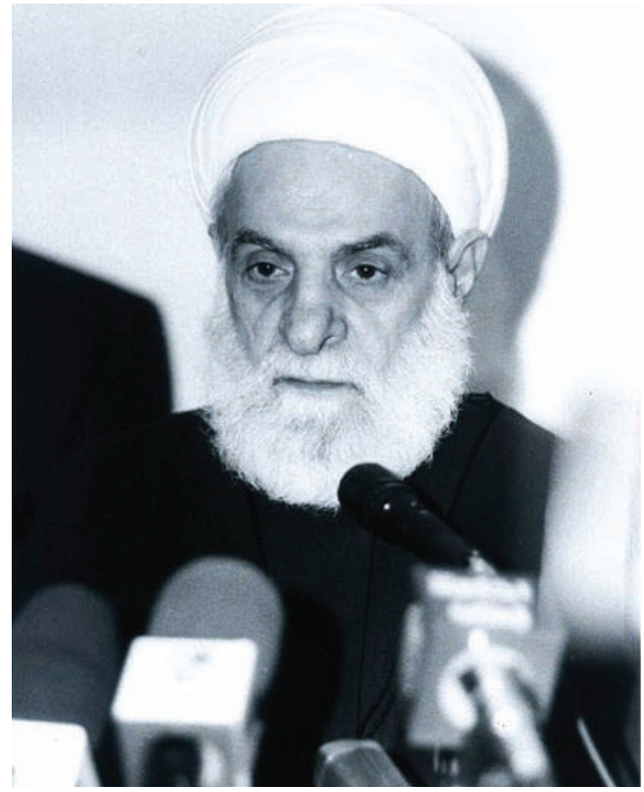

تحسّنت صورة المسيحيّ والمسيحيّة في المفهوم الثقافي الإسلامي في عصرنا تحسّناً «كبيرا»، كان الفضل فيه لإعادة إحياء وتفعيل التعاليم القرآنية في هذا الشأن. لقد أدّى ذلك إلى جعل المسيحية مقبولة في العالم الإسلامي، وجعلت المسيحي مقبولاً ـ سواءً أكان مواطناً أو كان أجنبياً ـ على الرّغم من النكبات والآلام التي أحدثها الاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لا يزال يتحرّك ويفترس بضراوة ووحشية.

ولكن لا يُمكن أن تُعطي «تعميماً» للعالم الإسلامي كلّه، فحيثما كانت هناك أزمات مع الغرب، وتَقنّعٌ بقناع المسيحية، فإن صورة المسيحيّ والمسيحيّة الغربيّة تتهشّم وتتجرّح في الذهن الإسلامي.

مثلاً: لا نستطيع أن نقول إن صورة المسيحية في أندونيسيا هي كصورة المسيحية في لبنان، ولا نستطيع أن نقول إن صورة المسيحية في السودان هي كصورة المسيحية في مصر مثلاً.

إن الجماعة المسلمة هنا وهناك تواجه تحرّكاً مسيحياً يتّكئ على التبشير، ويتّكئ على قوى الإستعمار القديم والجديد، فتتحوّل المسيحية إلى عامل اضطهاد أو قناع لقوى الإضطهاد، وإلى قناع لقوى التمزيق والتفريق، كما يُمكن أن يحدث في أندونيسيا، وكما يمكن أن يحدث في أماكن أخرى.

ثمّ إن القوى المسيحية هنا تواجه إمتحاناً عسيراً في الإلتزام الأخلاقي بالعدالة وبالوحدة، وقد يُقال إن الإسلام يواجه أيضاً نفس الإمتحان في مناطق أخرى، فأقول: نعم، على المسلمين أن يلتزموا مبدأ العدالة والإنصاف في علاقتهم مع المسيحيين، ولا يمكن أن نوافق أبداً على أي إنتهاك لمبادئ العدالة والشراكة في الإنسانية في العلاقات مع المسيحيين.

ونلاحظ هنا أن العلاقات المتوتّرة، علاقات النبذِ والإعتزال والعداء في قلب المسلم وعقله، لا تنشأ من مجرّد الإختلاف في الدين، فإنه مع الإختلاف في الدين على المستوى العقائدي يُمكن أن تُبنى علاقات إنسانية، وهذا مبدأ أساس في التشريع الإسلامي.

إنّ حالة العداء والنبذ تنشأ من حالة العداء والنبذ والعدوان المقابلة، وفي هذه الحالة لا يمكن أن تقوم حالة تعايش طبيعية ومُنتجة.

وهنا نشير إلى موقف الغرب من المسلمين، وخاصة في أوروبا، بعد نموٍّ نفوذ اليمين الأوروبي، والموقف المتشدّد من الهجرة.

وإحدى أعقد المشكلات المسبّبة لأزمة عميقة في العلاقات الإسلامية المسيحية في عصرنا، هو موقف المسيحية العالمية ـ ولا سيما الأصولية الإنجيلية الأميركية ـ من الحركة الصهيونية التي تُعتبر حركة معادية للإسلام و للمسلمين، وللعرب مسلمين ومسيحيين.

إن الأزمة الحقيقية تتمثّل في هذا.

لقد مرّت العلاقات الإسلامية المسيحية في العصر الحديث في أزمات متعددة:

كانت الأزمة في هذه العلاقات تتمثل في تبنّي أو سكوت المسيحية عن هجمة الإستعمار الغربي على العالم الإسلامي، والعدوان عليه واستتباعه، وتحطيم حضارته، ومحاولة تحطيم ثقافته، وإلغاء دوره، ونهب ثرواته. وقد تمظهرت هذه الأزمة أيضاً، بعد انتهاء عصر الإستعمار القديم، بالإستعمار الجديد؛ ثم تمظهرت الآن بالحركة الصهيونية.

ويحاول العالم الغربي أن يسوّي هذه الأزمة عن طريق فرض التسوية على العرب بالنسبة إلى فلسطين وما حولها؛ ولكننا نشكّ في أن هذا يكفي لتصحيح العلاقة مع المسلمين و مع العرب.

في هذا السياق نلاحظ أن المسيحية بمقدار ما تقترب من السياسات الغربية المؤيدة للصهيونية، فإنها تفقد موقعها المقبول في عقول المسلمين و في عقول العرب.

ولذا، فإن أزمة العلاقات بين المسلمين والمسيحيين، الناشئة من السياسات المسيحية الغربية المؤيدة للصهيونية، لا يُمكن حلّها إلا بتصحيح القيادات المسيحية في العالم الغربي ـ على مستوى الكنائس وعلى مستوى القيادات السياسية والفكرية ـ لعلاقتها مع المسلمين والعالم الإسلامي، والتوقّف عن دعم الصهيونية والتستّر على جرائمها.

إن عقدة الغرب المسيحي تجاه اليهود، من جرّاء عنصريتهم اللاسامية القديمة، يجب ألا تُحلّ على حساب العرب والمسلمين.. بتحويلهم إلى ضحايا جُدد، وإلى الدرجة التي يسمح فيها للعسكريتاريا «الإسرائيلية» أن ترتكب بحق العرب والمسلمين ما ارتكبته النازية بحق اليهود. إن الصهيونية تستثمر (الهولوكست)، وتمارس (هولوكوست) فعليّاً بحقّ العرب والمسلمين.

حقيقة الأمر أنّ المسلمين يتوقون في مجتمعاتهم الوطنية، وعلى مستوى العالم، إلى إنشاء أحسن العلاقات مع المسيحيين المشاركين في الوطن وفي الدولة أو على مستوى العالم.

ويحتلّ المسيحيون في وعي الإنسان المسلم، وفي تصوّره للإجتماع البشري في عصرنا موقعاً مميّزاً، وينظر المسلم بإيجابية ورغبة إلى بناء علاقات نشطة تعاونية على المستويات الوطنية وعلى المستوى العالمي، وهذا بالرّغم من كلّ المواقف النابذة والعدائية التي وقفها الغرب من العالم الإسلامي، ومن شخصية الدول الإسلامية. "..."

ينظر الرأي العام الإسلامي، على مستوى الأمة وعلى المستويات الوطنية، بإيجابية إلى الحوار مع المسيحيين، ويعتبره أمراً مشروعاً، بل يعتبره أمراً ضرورياً في بعض المستويات، وهذه النظرة مستوحاة من توجيه القرآن الكريم.

هذا الحوار لا يستهدف الدعوة إلى الدخول في الإسلام، إنه أمرٌ يستمدّ شرعيته من قوله تعالى: ﴿أُدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة..﴾ النحل:125.

وقوله تعالى: ﴿إن الله يأمر بالعدل و الإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي يعظكم لعلّكم تذكّرون﴾ النحل:90.

وقوله تعالى: ﴿قل يأهل الكتب تعالوا إلى كلمةٍ سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله..﴾ آل عمران:64، إلى غير ذلك من الآيات الداعية إلى الحوار والآمرة به. "..."

إن الخطاب الإلهي الداعي إلى التعارف والحوار والتعاون لم يُوجَّه إلى المسلمين وحدهم، بل إلى النوع الإنساني كله: ﴿يا أيها الناس إن خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير﴾ الحجرات:13. "..."

وهنا نذكر بأن على المسيحي أن يُعيد النظر في موقفه من قضايا المسلمين:

الموقف من إلتزام المسلم بالإسلام، حيث إننا نلحظ أن الغرب لا يعترف بالمسلم إلا بمقدار ما يتخلّى هذا المسلم عن إسلامه، وليس بمقدار ما يلتزم بإسلامه، وهنا نلاحظ أزمة الحجاب في فرنسا وغير أزمة الحجاب، نلاحظ هذا الإلحاح الشديد على تحويل المرأة المسلمة عن التزامها بالإسلام في السلوك والزيّ بهدف تحويلها إلى نسخة من المرأة الغربية.

نلاحظ الموقف من هجرة المسلمين إلى العالم الغربي والقيود التي تُوضع عليهم.

نلاحظ موقف الغرب ـ بوجهه المسيحي ـ من القضية الفلسطينية وقضية القدس.

إن صورة المسيحيّ البهيّة المقبولة في المفهوم الثقافي الاسلامي المعاصر، لا يُمكن أن يصنعها المسيحيّ أيضاً إلا حين يصوغ علاقاته مع المسلم على قاعدة الحقّ والعدل، ويُعبّر عنها في سلوكه وسياسته؛ إنّ المسلم يحمل من تعاليم وهدى الاسلام ـ في عقله وقلبه ـ ما يجعله قادراً على الإشتراك مع المسيحي على بناء وطنٍ مستقرٍّ مزدهر، وعلى بناء عالم مستقرّ، وعلى تكوين علاقة إنسانية تستمدّ مقوّماتها وطبيعتها من أخلاقيات الإيمان الإبراهيمي الجامع.

والحمد لله رب العالمين.